بليغة ويبلو بياض العين والكتاب والتمش جلاء . وحبرا ويحل مثل الدواب واسر بولها سريعاً .

القول على الطرنوت

ويقال ختر قال ابو الريحان البيروني هو حيواني يقال انه يؤخذ من جبهة ثور يكون في نواحي بلاد الترك بارض خرخيز . وقيل بل من جبهة طائر عظيم يسقط في بعض تلك الجزائر وهو مرغوب فيه عند الترك واهل الصين يزعمون انه يعرق اذا قرب من سعاء مسموم . قال الاخوان الرازيان خذوه المعقرب الضارب من الصفرة الى الحمرة . ثم المشمشي . ثم الضارب الى الكبودة وكان في القديم ما كان وزنه مائة درهم فليته من مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً . وجرب من دخن بخوره انه ينفع البواسير نفعاً جليلاً . وليكن هذا آخر هذا الكلام في هذا الكتاب واقتصرت على ذكر هذه الجواهر لانها النفيسة التي تدخرها الملوك والاكابر وتتحلى بها النواتي . ومنافعها جليلة ولم اطل فيه القول لكيفية تولدها لعدم الفائدة في ذلك ولا ذكرت ما يلتحق بها مثل المرجان والسبج وغيرهما لنزول رتبتها عن هذه الجواهر النفيسة . وقد آن ختم الكتاب بحمد الله تعالى والصلوة على نبيه محمد سيد المرسلين وآله وصحبه الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المطبوعات العربية

كان اول كتاب عربي شكل بالطبع في القرن السادس عشر للميلاد في رومية العظمى كرسي البابوية فطبعت على ذلك العهد تلهات من الكتب الدائرة كاسفار ابن سينا وغيره وعني المطبعيون بتصحيحها ومعارضتها على اصول وقعت اليهم فدلوا بذلك على ان حب الاتقان واختيار الاجود تكاد تكون غريزة في الغرب ثم انصرفت الرغبة في اوربا الى تعلم لغات الشرق ولا سيما العربية فطبع المستشرقون من الفرنسيس والالمان والهولانديين وغيرهم كتباً جليلة قاما وبذلوا مجهودهم في تصحيحها ووضع الفهارس والمعاجم لها والدلالة على ما فيها من فوائد واوابد وشوارد . وكل هذه المطبوعات على سقم الحروف التي كانوا يستعملونها في مطابعهم كانت على غاية من جودة الورق

ومتانته وجمال الوضع والشكل .

ولما دخل الطبع الى البلاد العثمانية سنة ١١٣٥ هـ تأسست في اسكدار احدى احياء الاستانة اول دار للطباعة كان في جملة المطبوع من الكتب العربية بعض كتب دينية وبينها بعض الكتب العلمية والتاريخية الا ان الطباعة لم تكن على الاتقان المطلوب والعناية بالتصحيح كانت دون عناية الاوربيين بكثير اما القهارس والتبويب فلم يحفلوا بهما لما يحتاج وضعها اليه من طول النفس وسعة الصدر وكثرة المال .

ولما قلد محمد علي الكبير في القطر المصري واليًا عليها وازاد ان يجعل لها شأناً في الحضارة انتدب في عداد البلاد الراقية كان محافلم به تأسيس المطبعة الاميرية الكبرى فشرعت تطبع الكتب المختلفة بها متخيرة لها اجود الحروف واجود الورق وخيرة المصححين والناظرين . وان بعض الكتب التي نشرتها تلك المطبعة الى اوائل عهدها لا تزال الى اليوم مثال الاجادة ومنها كتاب كشاف الفارسي لمحافظ الشيرازي والقاموس المحيط للفيروز آبادي .

وما برحت احوال المطبعة الاميرية عرضة للتقلب والابدال على ما يكون حال الادارات والمشاريع في الشرق غالباً تختلف سقوطاً وارتفاعاً بحسب ارادة القائم عليها وهي تطبع مع تلك الكتب القديمة التأليف الاسفار التي عني الشيخ رفاعة الطهطاوي وجماعته بتعريبها من اللغات الافرنجية ولا سيما الافرنسية فجاءت الاقليلاً انموذج الجودة شكلاً ورسماً .

ثم اخذ بعض التجار في اواسط القرن الماضي بمصر يقتحمون المطابع ويطبعون الكتب المكسب منها فقط فوضعت لم بعض امهات الحروف ولكنها سقيمة بالقياس الى حروف المطبعة الاميرية وزادها سقماً ان اولئك الطابعين طفقوا يشترون من الورق ردأه ويقتصدون في التصحيح حتى لقد يعيدون به واكثرهم أميون لا يقرأون الكتاب الى اساس بالتهجي سيء ضعف المدارك والعلم فكانوا اذا اعتسفوا واجادوا يطبقون المطبوع بالحرف على ما عندهم من الاصل وربما كان في البلد على قيد خطوة منهم خمس نسخ او عشر من ذلك الكتاب كتبت في اوقات مختلفة وهم لا تحدثهم انفسهم ان يعارضوا عليها نسختهم التي يطبعون عليها وان يذيلوها كما جرت عادة الاوربيين بوضع اختلاف النسخ في اسفل الصفحات . اما التبويب والفهارس المتقنة فليس لها اثر فيها

طبعه اولئك المتجرون بضاعة العلم .

وفي ذاك العهد فتحت بعض المطابع في بيروت على يد بعض الجمعيات الدينية المسيحية وكان سبق لبعض الاديار في لبنان ان كان لها مطابع حجرية . طبعت بعض الكتب الدينية واللغوية ومن جملتها شرح الزوزني على المعلقات وهو طبع حجري لا حرفي . فتخيرت مطابع تلك الجمعيات الكتب الدينية اولاً واجادت بعض الشيء في طبعها ثم ارتفت الطباعة الى ان أصبحت بمثابة المراقبة فانقطعت الرغبات عن الطبع بل زهد الناس في تعلم العربية ورأوا ربحهم المادي من اللغات الاعجمية اكثر وانشأ دير الفرنسيسكان في القدس مطبعة طبعت بعض كتب واكثرها في الدين ومثلها دير الدومينيكيين في الموصل طبع مع كتب الدين كتباً علمية قديمة وحديثة ومنها تآليف المطران يوسف داود العالم المشهور . وأنشئت اذ ذاك في دمشق مطبعتان الا انهما لم تطل ايامهما حتى تزيد العناية بالاتقان مطبوعاتهما على ما ينبغي .

وهكذا اتت فترة نحو ربع قرن على مصر والشام والطبع الا قليلاً يكاد يكون العربية في ايدي اناس من العامة يرون الربح من مطبوعاتهم بالاقتصاد من التصحيح والعناية والورق والشكل ورص السطور والكلمات بعضها فوق بعض بدون فواصل ولا تقطيع وكانت اكثر مطبوعاتهم في فروع الفقه والنحو والكلام والزهد والخلاعة مما الفه المتأخرون وفيه من الحشو واللغو والموضوع والمصنوع ما كثر ضرره في عقول الطالبين والمؤدبين .

ومنذ عادت الى العربية بعض نضرتها الاولى ايام هب منذ بضع سنين اناس استاروا بقبس الغرب اصبحت المطابع تستحي من طبع التآليف الساقطة وتستشير اهل الرأي في تخير المصنفات للطبع ولو عملوا بنصائح العلماء كل حين لما اخرجوا كتاباً للناس قبل بذل الجهد في تقويمه وتصحيحه واتقان طبعه ووضعه ولكن ما الحيلة وهم يعتقدون كما قلنا ان الربح لا يتيسر لهم الا بمثل هذا الاقتصاد البارد . ومما يعجب الا من طابع يطبع كتاباً يكلفه الالف والالفي ليربح ثم يبتغل بعشرات من الليرات او بعض النسخ جائزة لمن يتقن النظر فيه .

اما سائر المطابع المصرية كمطابع الصحف فلم تطبع شيئاً يذكر من الكتب المهمة وان كانت اكثر محلة من اولئك التجار في اتقان الطبع وجودة الورق وحسن التنسيق . ولم تر في المطبوعات التي انتشرت في العهد الحديث اتقن واجمل واصح من

كتاب المخصص لابن سيده تحاورته بالتصحيح ايدي بعض العلماء الاحصائيين المحققين فجاء مزيداً في بابه لا تخجل منه اذا نظر فيه نائم اوربي كسائر مطبوعاتنا الاخيرة .

نقول هذا ونحن على مثل اليقين في ان ما طبع من الكتب العربية في بلادنا ما عدا بعض كتب طبعت في المطبعة الاميرية سنة مصر وبعض كتب لغوية ادبية طبعت في المطبعة اليسوعية في بيروت لا ثقة للمشترين به . وقد اكد لنا احدهم ان كل نقل بنقلة احد موَّلفيهم من كتاب عربي طبع في الشرق تسقط مكانتهُ وان جمهورهم لا يعترف بالصحة الا لكتاب عربي طبعه اوربي ولكن هذا لا يخلو من تلويث .

ليس من العار ان تكون سيرة ابن هشام التي طبعت في المانيا اصح من الطبعة التي طبعت في المطبعة الاميرية نفسها وهي التي كنا نقرظها الآن بجودة الطبع واختيار المصححين وقد نبغ منهم فيها امثال الشيخ نصر الهوريني واشباهه .

ليس من العار ان يطبع امرؤ القيس الخطان او (ماكس مولر) الالماني طبقات الاطباء لابن ابي أُصيبعة في مصر فيخرج بجودة تصحيحه وفهارسه على ما تراه وتطبع مصر كتاباً لاحد كبار قضاتها الذين تفاخر بهم وهو كتاب طبقات الشافعية للسبكي فيأتي مشعثاً سقيماً كما تشهد . نعم ان نفس تأليف ابن أُصيبعة ارق وامتع من مصنف السبكي في بابه ولكن الفن الطبع والتصحيح والفهارس هو الذي نبكي على فقده بين اظهرنا وهو موضوع بحثنا الآن .

اي فرق بين كتاب لنا طبع مرة في اوربا واخرى في الشرق . بالله كم تساوي نسخة مصر البلدان لياقوت طبع اوربا اذا قيست بالنسخة التي نقلت عنها وطبعت في مصر او كتاب الكامل للمبرد المطبوع في اوربا اذا قيس بالطبعة الثانية المصرية التي نقلت عنه فكانت الصحة تغلب عليها اكثر من الكتب التي نطبعها ابتداء .

ومن غرائب امر الطابعين في مصر انهم يستحون طبع الكتب التي تعب علماء المشرقيات من الاوربيين في احيائها فيعيدون طبعها بالسقم المعهود في مطابعنا فتجيء والعين تنوء عن النظر اليها دون الطبعة الاوربية بمراحل ومع هذا يستنكف اولئك الافاضل ان يشيروا الى النسخة المنقول عليها تمويهاً بانهم ما نقلوها عن اصل مخطوط ظفروا به وتكلفوا في البحث عنه ضروب المشقة والنفقة كأن اولئك الفضلاء الذين لم الفضل الاكبر في احياء مآثر اجدادنا غير احرياء ان يذكروا بكلمة شكر لمجاهدتهم لنا .

واما نذر حتى الآن خزائن الكتب في بلادنا حافلة بالمخطوطات من الامهات التي تجب المبادرة الى تسهيل الطبع على مناحي العربيين ونرى طالبيها وكثيرين يكررون طبع تلك الكتب المألوفة والمتداولة الذكر منهم يمد يده الى كتاب طبعه او في تعالى عرق القربة في سبيل نيله فيعيد طبعه مدعيه انقذه وانه هو الذي احياه . وخزائن كتب الاستانة (١) وخزانة دار الكتب المصرية وعدداً جمة من الدواوين التي احييت على الطريقة التي تجب من العناية لكان فيها الزاد الجزيل والشرف الاثيل لطابعيها وناشريها .

لو بذل ارباب المطابع في مصر والشام والاستانة وبغداد وتونس وفاس بعض عناية الاوربيين لكنا قبل ان يشملنا بالطبع لكان عندنا اليوم من المطبوعات العربية ما تفاخر الامم بكثرته واتقانه . نحن لا نقول للطابعين بتأنقوا وبالغوا في التصحيح كما يبالغ اكثر المستشرقين في الطبع بل يرسلوا احياناً الملازم المصفوفة حروفها من مملكة الى اخرى لتعارض على الاصل الآخر الذي هناك او لتدفع لعالم متمكن من الفن الذي جمل الكتاب في موضوعه يمر عليها نظره . وانما نريد من السخاء المعتدل في التصحيح وجهد من اراذل المشاكل في الطبع لا مناص من توسيده الا للعاملين به كما لا مهرب من اعطاء اجرة المنقد والمرتب والطابع والمجلد لكل من اراد ان ينشر كتاباً .

طبعت بعض مطابع المشرق وفارس كتباً عربية كثيرة وبعضها بالحجر سبق موضوعات دينية من حديث وفقه وكلام ولكل بعضها على المعجمة المستحكمة من السن اهل تلك البلاد تكاد تكون اقرب الى الصحة والضبط من بعض ما طبعه العرب من ارباب الطباعة في هذا الشرق الادنى .

اما الآن وقد رفع الحجر عن العلم في البلاد العثمانية واصبح كالديار المصرية في حريتها فالفرض العيني على المحررين والمتعلمين خدمة الآداب والعلم ان يسارعوا الى استصلاح ما حوته خزائننا العامة والخاصة من الاسفار المهمة ويحذوا حذو الاوربيين في التصحيح والشكل والفواصل والتخطيط والفهارس المنوعة حتى يشبع المراجع فوائد الكتاب لاول وهلة ويقنط عن ما يريد معرفته منه بادنى نظر دون ارهاق القوى في تصفحه كله على غير جدوى من اجل العثور على مسألة او اقتباس جملة .

(١) راجع «المخطوطات النادرة» المقتبس ٢ ص ٥٩٩

وبذلك يرفعون العار عن العربية الذي يشيعه عنها الجاهلون فضلها فيرمون كتبنا عنها بانها معقدة غير منسجمة وان المطالعة في كتب جملت جملة واحدة ضرب من العبث واضاعة الوقت على غير طائل . وافناء العمر في باطل وعاطل .

رسائل بليغة (١)

وقع الينا كتاب مخطوط وقد كتب على جلده بخط حديث « لاتحزن ان الله معنا » حكمة بالغة لبعض الحكماء : لا مجد كمجد من يجدد ولته . وقال اسكندر دوماس الفرنسوي المشهور : ان الاشرار يخلعون على النفوس الشريفة يد انهم لا يستطيعون هذا الذي هي (اي النفوس الشريفة) كالبحور الصوانية تعاود اليها امواج النهر عند هبوب العواصف فتظن انها قد اغرقتها وهي قد غسلتها فتعود في نور الشمس اكثر جلاء .

وليس هذا المجموع اسم ولا عرفنا اسم جامعه ولا سنة نقله وانما الظاهر من خطه المشرقي انه مما كتب قبل الالف الهجرة وهو في مئة واربعين ورقة من قطع الربع . وفي الورقة الاولى منه صورة سؤال كتبه الشيخ الفقيه المفتي ابو محمد عبد الحميد بن ابي الدنيا الى الفقيه الامام العلامة الشيخ عز الدين ابي محمد عبد العزيز بن عبد السلام رضي الله عنهما فبين تصدى للفتيا والجواب ماهما وقد استغرق السؤال والجواب ورقتين .

اما المجموع فهو رسائل لبعض البلغاء فالرسالة الاولى كتاب الفقيه المشاور ابو محمد عبد القوي في زواج ابنته الى احد الفقهاء وكتاب لابي بكر بن صاحب الصلاة الى بعض اخوانه يوصيه بالتحفظ بكتبه من الفار وكتاب له الى بعض اخوانه يصف جامع قرطبة جاء فيه :

« والجامع قدس الله بقعته ومكانه . وثبت اساسه واركانه . قد كسي بردة الازدهاء . وحلي في معرض البهاء . كأن شرفاته فصول في بنان . او اشعر في اسنان . وكأنما ضربت على سمائه كلل . وخلعت على ارجائه حلل . وكأن الشمس

(١) من مكتبة وجيه افندي الكيلاني احد ادباء دمشق ووجوهها .